

الكتاب الأول

بدايات قلقة

جمال الجزيرى

قصص



المجلس الأعلى للثقافة

بدايات قلقة

قصص

جمال الجزيرى



٢٠٠٤

الإهداء

إلى أبى وأمى

جمال الجزيرى

" توازى "

يغرس عمى المحراث فى التربة الرطبة فتسير البقرتان فى توازن معهود. أتتبع انشقاق الأرض العبقرى وفى يدى صفيحة فول سودانى ، ألتقط سيمفونية عزف البقرتين فأرمى الحبات فى الخط بانتظام. رجلان يتعاركان ، لماذا يتعاركان ؟ حمارته قطفت بعض عيدان البرسيم من غيط جاره !!! يشق المحراث الأرض ، تشق الأحزان جسدى (مساء أول أمس أنزلنى السائق فى منتصف الطريق عندما انتهى الأسفلت ، أخذ أجرته وتركنى وحيداً وسط الظلام ، سمعت طلقات رصاص ، نبحت كلاب ، فضج قلبى وتراكمت فى داخلى أشياء ، ظلت الهواجس تطاردنى ، تفلت) .

يقلّم أبى شجرة العنب ، امتدت أفرعها كثيراً وبدأت تتسلق النخل وحيطان البيت ، الرقابة قلمت الرواية ، حذفت منها ما شاءت وبعد ذلك حذفتها من قائمة الأعمال القادمة. لماذا ياترى ؟ يقولون إنها لا تخضع للمعايير المتعارف عليها ، يتحججون بأنها تخلد صاحبنا ، يتعنتون إنها تصور شخصًا مغضوبا عليه. قول على قول، كلام على كلام ، وصليل صوت مظلم. المجد لك صاحبنا ، فمهما كان أو سيكون ، فى ضميرنا ترتع ووضاءتك النورانية تنير الصفحات .

أرمى حبة ، تقع خارج الخط ، يأتى جارنا بشاى ، أرتشف رشفة ، لاذعة المرارة ، صديقى أخذ منى إحدى قصصى ليقرأها ، فتقدم بها إلى المسابقة باسمه ، أخرج يدى ، أرمى ما بها ، تنزل حبات كثيرة ، يلحظ عمى ، يضجر ، يلسع الرخو(١) ظهر البقرة. تخرج دودة من رحم الأرض ، قطعها المحراث نصفين ، تتقلص ، ترتخى ، تسير فى اتجاهين متقابلين. تقلص طالب ، توتر ، ثار ، تجرأ ، قبّل أستاذته سيئة السمعة فى المعمل .

عصفور يترنم بأهازيجه على شجرة قريبة ، يبصر حبة ، يندفع إليها ، ى ل ... ت .. ق .. ط .. هـ .. ا ، تتزوبع ذرات الهواء ، ينزف دمًا ، فيلتقطه صاحب الفخ بانتشاء. تتراكم فيّ أشياء ، أتثاقل .. تتعالى أصوات المتشاجرين ، تتقدم بقرة ، ينحرف المحراث فيضرب عمى البقرة المتأخرة ، ثم ما يلبث أن يشد البقرة المتقدمة من مقرنها فيقع الحلس من على رقبتها ، يتثاقل جسدى ، أتباطأ ، يلتفت إليّ عمى بغيظ .

أرمى حبة. كيف ؟!! أتصعد ؟! أتنزل فى فمى ؟! أتسد حلقى ؟!! أشعر بغصة .. صوت أذان يتسرب من بعيد ، يراودنى إحساس بأن كل المصلين ستلدغهم الثعابين - قل لذوى العيون الحجرية أن هنا إسقاطا وإلا كفروك ، فرقوا بينك وبين زوجتك ، آسف خطيبتك التى تحبها كثيراً - لا شيء يهم صديقى المروى عليه ، فعندما يضيق أفق التفكير ، وعندما يتدخل أناس لا يملكون الكفاءة أو الأهلية الأدبية ، أو قل

(١) أداة مثل الكرباج تضرب بها البقرة أثناء حرث الأرض .

المعرفة بمجريات الأدب ، فقل على الأدب السلام - تنعكس أشعة الشمس على زجاج ساعتى ، تلمع فى رأسي كلمات القصة التى عرضتها على أحد أساتذتى ، فوبخنى وقال : "القصة قصتى "وقرأتها منذ أسبوع باسمه .. يزداد تثاقل جسمى ..

تقع الصحيفة ، أثقل من كل الجبال أقع ، أحس برطوبة التربة التى خرجت إلى الشمس ، أشق جسدى نصفين ، أفتحه واسعًا ليتعرض للشمس ، عليّ رماد كثير ، يسيل مني دم أسود ، يتعامد على يميني ويساري ، تتجمع القرادين ، تنقّي الديدان مني ، صوت عبد الباسط عبد الصمد قادم من المسجد يتلو سورة يوسف ، صوت أم كلثوم ينبعث من الراديو تحت الشجرة تشدو : "ياللى ظلمتوا القص وقولتوا وعدتوا عليه ، العيب فيكوا لا فى نقادكوا ، أما القص ياعينى عليه" ... يتسرب الصوتان إلى أذنى ، يتغلغلان ، يحركان ذراتى ، فتتطاير ذرات رماد ، يتجمع لون القرادين الأبيض ، يدخل صدرى ، أشعر بخفة ، الشمس تكسبني طاقة فأزيح باقي الرماد ، يلسعني الجمر ، أشتعل ، ينصهر نصفاى ، يلتئم جسمي ، يتجمد الدم الذى خرج مني ، أنهض ، أتناسى "أعاود إلقاء الحبات ، يمر المحراث ، يفتت الدم المتجمد ، تلتهمه التربة .

أكل الأرز

سيؤذن العصر. وستجدك كعادتك تخرج من بيتكم ، تتطاير بين البيوت ، تلم العيال ، تجعلون (محمد) يطلع النخلة يصيد الزرازير من الأعشاش. لن ينسى بالطبع أن يأخذ معه بكرة الفتلة. تنظرون إلى النخلة العالية ويصعد بلا خوف (ما أصله متعود كل يوم يطلع ويجيب الزرازير) عندما يقشّر (السلاع) من على الجريد يجلس فى مكان (واتق) ، يمسك الجريدة بيد وباليد الأخرى يدخل الأعشاش. سينظر فى العش جيداً ، إذا كانت الزرزورة ريشها أصفر يتركها مكانها إلى أن تكبر ، أما إذا كان الريش أسود ، يمسكها ويربطها من رجلها بالفتلة وينزلها لكم ، ستأخذها البنت ليلى (تسمّى عليها وعلى طول تقطع رقبتها بالموس اللى سرقته من أبوها) عندما يمتلىء الكيس سينزل محمد ، يمسح العرق بكُم جلبابه ويزعق وهو يبرم شنبا ليس له وجود (الشاى يابت) عندئذ ستسرع ليلى ، تملأ كوبًا بالماء ، تميل إلى الأرض وتلتقط سلاعة تمسحها فى جلبابها وتحرك بها الكوب. سيمد يده إليها ، يأخذه منها ويقول ضاحكًا (أصيلة يابت الناس) .

ستقسمون الأدوار : يتبرع اثنان بلم العفش والبوص ، يجرى ثالث إلى (الطرمبة) ويملأ الجردل بالماء. بينما يجرى رابع إلى بيته و(يسرق) حلة. وستجلس ليلى تعمل الكانون فتضع قالبين طوب فوق بعضها

وتترك مساحة تكفى الحلة ثم تضع قالبين آخرين. تحط الزرازير فى الحلة المملوءة بالماء ثم تشعل النار فى العفش .

عندما تغلى الحلة (على الآخر) ستخرج البنت الزرازير. تنتف الريش وتتأكد من أن كل الزرازير نظيفة. ساعتها ستملأ الحلة بالماء وتضع بها حبة ملح والزرازير. ستجرى إلى بيتكم تدخل رأسك فى (الخوخة) تسحب ملعقة وتدخلها فى (برام) السمنة .. ستحاول ألا يراك أحد وعندما تتأكد من أن أمك مشغولة بحلب البقرة تجرى خارجًا وأنت تدس معلقة السمنة فى كم جلبابك الواسع. ستجدهم منتظرين وعيونهم تبص على باب بيتكم. ستخرج المعلقة من كمك فتخطفها البنت ليلى وتحطها فى الحلة. عندئذ سيحوطونك ويلفون حولك وكل عيل يمسك يد العيل الآخر. فتقول (افتحوا الباب ده) ويردون عليك (الجاموسة والدة) .. ولن ينفتح أى باب إلا عندما تستوى الزرازير .

تخرج ليلى الزرازير ويكون محمد قد (سرق) شوية ملوخية من بيتهم. ستعمل ليلى ملوخية (شلولو) وتجلسون ، يخرج كل واحد منكم الرغيف الذى (سرقه) من بيتهم وتأكلون. ستتعاركون على من يوزع الزرازير فتخطف ليلى الحلة من أيديكم وتعطى كل واحد نصيبه .

ستذهب إلى بيتكم تفتش عن المكان الذى دست فيه أمك (ماجور) اللبن. وستملأ (سطل) الماء الفارغ. سيكون محمد قد أحضر شوية أرز وستجلس ليلى تجهز (رز بلبن). لن تأكلوه بالطبع فعندما تبرد الحلة ستلفونها بكيس بلاستيك كبير ، وتدفنونها فى كوم (الصبخ) بجوار شونة التبن. عندما تبدأ الدنيا فى الظلام سيذهب كل منكم إلى جدته لتحكى له (حواديت كتيرة) وتتركون الأرز حتى تأكلوه فى الصباح .

مالم تقله

وامتى الدهشـــة تجمعـــــنا   رفـــــاقة والقـمر معـــنا

حصان جامح فى نهر النـــور   صهـــيله جرئ وله معـــنى

من أغنية لعايدة الأيوبى

تنفذ بقايا ضوء إلى الأتوبيس فتغمر معظم الركاب بغبش متفاوت إلا قلمه هو ، ذلك المتواتر الوصلات الكتابية ، يآذر الأسطر والسطور ويرسم ، لا ، يشكل ، لا ، يمارس ذلك الشبق الجنونى ، تتراقص بعض الكلمات فى نشوة وربما فى فتنة من فتن المسدى[1] . النخيل فى الخارج يتألم متكاتفًا ولافتات الطرق لا توحى بمكان ولا تحدد بعداً. جاهل الخطى لايسير وإنما يسار به ... الانقلابات والمطبات لا تمنعه من الكتابة ولا تمنع الكتابة منه. ولا المسكنات تصرفه عن قذف عصير الوجدان .. الغباء الطافح من أعضاء الكراسى مفكوكة المسامير ينتشر ويتخلل الأنوف. النخيل يتكتل ويسد مسام الطريق ....

(الجدة جالسة على المصطبة بجانب الفرن . يصطفون حولها صامتين عيونهم أطراس دهشة وآذانهم ترق لشغاف الحكايات. حواديت الجدة الزاخرة تجلسهم مستفسرين ، يلحون عليها فى الإكمال وتتحجج بأنها مجهدة ... الديك والتعلب ، أمنا الغولة ، راصد الكنز ، السندباد ،

(١) عبد السلام المسدى ، أستاذ جليل وناقد تونسى من كتبه فتنة الكلمات .

على الزيبق ، على بابا ، خيبة ... وعندما ييأسون من إجهادها يقفزون خارج البيت ويتحلقون حول (الطرمبة) .

التعلب فات فات

وفى ديله سبع لفات

الدبة وقعت فى البير

وصاحبها راجل خنزير

عندما يتعبون من اللف يجلسون ، يبدأون فى تمثيل ما حكيته الجدة لهم ويتخيلون مالم تقله ...)

لم يكن القطار يمر على (البلد) ، ولن يكون ، لذلك لم يحلموا يوما بالسفر فقط يقفون فوق سطح البيت ، يراقبون أسراب الحمام ويتماوجون مع تموجات أجنحتها .. وبالرغم من محبتهم الشديدة للحمام فإنهم يغتاظون عندما يعود إليهم فى آخر النهار. فلا يذهبون إلى الجدة - كانوا يتمنون أن يرحل الحمام ويرسل لهم الصقر يأخذهم بين رجليه ويطير بعيداً ......

هذا هم تطاردهم القطارات كأنهم لصوص وهم يجرون حتى يلحقوا لهم كرسيًا فى القطار من مخزنه قبل أن يمتلىء. يسرعون والقطارات تنبح من كل مكان معلنة حادث سرقة ، وربما اغتيال. يعدون ويحرصون على ألا تحيط بهم القضبان كى لا تدهسهم العجلات .

الأصفياء

يا نجمة ياللى هنـــاك بعـــيدة شايفاك زيى فى الليـل وحيـــدة

لسة الليالى على الشوق بعـــيدة وياما عشـــنا والقــلب حاير

من أغنية لحنان ماضى

ألا تعرفون أحبائى أن مهرجان القلعة سيبدأ غداً ؟ أهلا به وبذكرى عام مضى ، بالتأكيد سنحتفل غداً. سنتسابق إلى الأتوبيس ، سنهبط قبل المحطة ونمر على المدافن العتيقة بنفس الشارع بعد أن نتجه يساراً. سيقول لنا سراج وصفى قصيدة وهو يحاول أن يقرأ تواريخ إنشاء المدافن. هل تعتقد أن سراج يستطيع أن يأخذ تصريح بالغياب ليحضر المهرجان ؟ يا حسرتا على سراج أتذكرون ساعة أن بدأ وجيه عزيز بالغناء وأخذنا نردد وراءه كلمات فؤاد حداد: "فنان فقير على باب اللّه ، والجيب ما فيهش ولا سحتوت ، والعمر فايت بيقول آه ، والقطر فايت بيقول توت ، صحيتنى ليه ياشويش ياشويش ما أنا كنت سارح فى الملكوت ؟" أتذكرون ؟ ساعتها صعد سراج إلى وجيه واحتضنه. فصفقنا لهما وأعيدت الأغنية مرة أخرى. لحظات كانت لنا ياليتها دامت لنا ، ليت أن سراجًا كان معنا. أظنه يقاسى الأمرين الآن وهو لا يستطيع أن يحضر المهرجان .

سينصرف عنا نجاح عبد النور للحظات ويحضر لنا أكياس الشيبسى ، فنتخاطفها ويقف صامتا مبتسما رقراقًا كعادته ، ينشر

حولنا سماحته ويترنم بعشقه الأبدى للفن والبشر. اللّه يرحم أيامك يانجاح ! ماذا عساك تفعل فى صهد الكويت ومهرجان القلعة ، موسمنا السنوى ، قد هلّ علينا ؟ مَنْ سنخدعه ، نتمسكن عليه فيحضر لنا العشاء ؟ من سيسامحنا ؟ من سيؤجج شعلة القلم ؟ من سيصعد القلعة ، يتنفس من عبق الجدران فيصعد إليه الحرس وينزلونه ظانين أنه سيقوم بفعل مخل ؟

سيجلس إيهاب عباس يتأمل الجدران فى صمت ، سيملأ رئتيه من عبق التاريخ ، سينهض ، سيجرى فى فضاء القلعة ، سيصرخ بأعلى صوته (أنا باجرى وسط التاريخ يا ولاد) سنجرى وراءه فى شبه مظاهرة تاريخية ، لحظتها سيجرى وراءنا الحرس ويخرجوننا بالقوة اللطيفة. كيف ستستقبل هذا اليوم يا إيهاب وأنت فى أسبانيا منذ لم تحتمل مرارة التدريس هنا أو فى بلاد العرب ؟ أو تحتمل الغباء الطافح من رؤوس الوطن ؟ هل ستستطيع المجىء ؟ أظن أن الفترة جد قصيرة ولا تسمح لك بالحج إلينا .

سيجلس جمال الجزيرى يستنشق نغمات العود ويملأ وجدانه بالرقرقة الأسطورية ، يترنم بأناشيد الحياة ويلقى السلام على الموتى الذين جاءوا من المدافن ليستمعوا إلى عبقرية الأداء. سينظر إليه سراج بود ثم يقول لنجاح (خايف عليه من تفاؤله ده ، وخايف ييجى يوم يلعن فيه كل شىء) ، أين أنت الآن ياجمال ؟! ها أنت الآن وحدك وقد رحل أصفياؤك ولا تستطيع الآن أن تسافر إلى خطيبتك. التهم حنين شمس الغروب ، وأكمل قصتك علك تجد فيها السلوى. أكمل ، ما لى أراك تترك القلم ؟ تسقط دمعه وتقذف بكوب الشاى فى عرض الحائط ؟!..

وما هو بماء

أحاول أن أخرج من تحت ركام الألحفة ، لسعة البرد تنظر إلى بتحد وجسارة ، فأنهزم وأنكمش. آخر يوم فى السنة ، (سخيف أن تتغيب عن المدرسة) ، يقولون. نصحنى أحدهم بضرورة حضور أول يوم فى السنة وآخر يوم ... يقهقه البرد متشفيًا. تسرى قهقهاته فى أذني فأمسك بأطراف الألحفة وأثبتها تحتي .

أرفع الركام قليلا ، أحاول أتلصص على مفردات الطبيعة حولي. تنتهكها الحركة الوئيدة لبعض السيارات .. تتسلل يدى إلى مفتاح المذياع بجانبى : يقذف بنشرة السابعة والنصف ، تتطاير القذائف وتغزو الفراغات الضيقة تحت الركام وتسقط جثة طفل عراقى ، فأزيل الركام بلهفة وفزع : أمسح على جبينه ، أقبله وأوسده شراييني وأوردتى ، تئز فى قلبى النبضات المخضبة بالدماء المبتسرة ، فألعن العالم وكل الحكام .. (أمى تحترق ، قطعوا أبى ، الجوع موّت أخى وأختى ، كان بيتنا يهتز وكانت السماء حمراء ، النار تجرى فيها وتحرق كل شيء ..) لاتبك وليدى فذنبك .. سامحنى على دموعى التى أرّقت جروحك ..

يبكى البرد وينهار. يأمر بانسحاب كل أعوانه. أربت عليه ، أحمل الطفل فى حنان القلب ، أغسله بماء دافيء ، ارتدى السواد ، وأخرج إلى المدافن ..

وكفى ؟!!

المذياع يتراقص منتشيًا بقدوم عام جديد. يحتضن آلاف الجماهير فيتصلون مهنئين ، تتدخل الأغنيات لتلعب دورها ، يعتذر المذيع فى أسف شديد : سيقطع البرنامج لإذاعة موجز الأنباء : جنازات جماعية فى العراق. الكويت تحشد : "جنودها" على الحدود ، وروسيا تهدد. الثنائى المرح يلهو ببعض القذائف الفتاكة. تزغرد شفرات النساء العاريات فى الطائرات وهن يتحسس مطلقى القذائف بعد كل طلعة ثم تستقبل الشفرات قذائف من نوع خاص .

يكمن إعصار موجز الأنباء ، فيعود المذيع ويكرر أسفه على انقطاع البرنامج ، يسأل إحدى الجماهير (هتقضى فين الكريسماس؟) (حجزنا فى الطيارة على نيويورك) (تحبى تسمعى ايه ؟) (مايكل جاكسون)

يكمن الإعصار وينحسر عنىّ ما تبقى من ثقة ، تطفو تيارات الدم المحروق ، فأقذف بالمذياع فى عرض التاريخ وطول القرن ... أترحم على يوم قد يجىء. أمسك موسى حلاقة ، أقطع أوردتى ، ألطخ صور زعماء فى جريدة بالدماء ، أمسك القلم ، أكتب هذه الكلمات الهزيلة ، أصرخ ، أتهاوى. (نهاية غبية متفلسفة ومتخذلقة ، أليس كذلك ؟ ملعون أبو القص بالشكل ده!)

ولكن الأب كفر

الأب ، أو ما يقولونه ، جالس يستدفىء على نيران أرواح الأطفال. لا ينسى قبل أن ينام أن يتبول على النيران كى لا تحرق أشجار قصره. لا يفوته أن يضع فى المسجل موسيقى هادئة ولا أن يترك لأحلامه العنان قبل أن ينام . يقول الدم العربى بأنك لست أبا. تقول أرواح القتلى بأنك لست جارا. يقول قلم الوطن بأنك لست حبرا ...

تستشرى نشرات الأخبار فى الجمجمة ، تنخر فى آخر الحصون المتبقية ثم (تعرج) إلى العظام .. كيف يأتينى النوم والصرخات تصم الآذان ؟!! كيف أسمع الأغنيات والهزائم تفور فى الوجدان ؟! كيف أكتب الشعر والموسيقى مغتالة ؟ هل ألهو بالجثث والعظام وأكتب قصيدة أفرح باحتفاء النقاد بها ؟!!! لا لن أكتب الشعر. سأقول فقط بأنك لست أبا. ما أنت إلا خنزير يحيا على النسيان .

لن تقدر

حـاول أن تبـتـسم فى وجـه طفل عـراقى بكر. سـيـداعـبك بشـقـاوة فطرية. وربما يتعلق برقبتك. أعرف أنك لا تستطيع الابتسام فى وجهه لأنه بالتأكيد سيكون قد مات. حاول أن تبتسم وتصطنع فرحة غامرة بعام جديد سيحل غدا وستدرك بالتأكيد أنك فقدت القدرة على الابتسام. عندئذ تعال بجانب ... ...

انتظار

تصارع أفكارى يزيد رأسى حرارة. يلهبها دم أبى الصريع وألسنة النار التى انطلقت على كل الركاب من أيادى غبية تحت لحى شعثة. لا أتحمل أصوات ورشة النجارة الزاعقة أسفل العمارة. مشتبكة الأمور أمامى. لا أستطيع أن أهرب من بين فكى تلك الآلة التى تمزق أفكارى .. ألم بشع .. فلأمسك رأسى بيدي كى لا تنفجر .. يدي تعبت ! .. أين المنديل ؟.. هاهو .. فلأربطها به .. صوت الأذان الزاعق فجأة من كل الجوامع ، والذى لا يوجد انعكاس له (ما تبطل فلسفة) يهز جدران الشقة ، ويتوغل فى أذنى ، مساعداً الصداع على التسرطن داخلى. الأصوات الزاعقة بمصادرة كتابى تحبسنى داخل ذاتى. منعه يجرعني العذاب قطرة قطرة كزهرة الزهور[1] التى فرض أبوها عليها أن تلبس ملابس الرجال وتتجرع تغييب أنوثتها كل لحظة .. يبدو أن شهر رمضان ذبل وتلاشى تحت الأنقاض والأثقال .. هل (اياجو)[2] مازال حيا يحرك الدمى من مكان غير مرئى وينصب شراكه الرقيقة ؟ ... من الأفضل أن أقفل الشباك ، كل الشبابيك ، وأسمع الأذان بصوت خفيض

---

(١) ربما كانت بطلة رواية ليلة القدر للطاهر بن جلون .

(٢) الشخصية الشريرة فى مسرحية عطيل لوليم شكسبير .

من الراديو .. جرس تليفون ؟ .. أيعقل أن يكون يسأل عني ؟ .. ألو .. "صديقى العزيز . أنا جايلك" .. صديقى[1] العزيز سيجىء ؟! ياما أنت كريم يا رب ! .. سيخفف عني "كل شىء" ... سينصحني بالتأكيد ماذا أفعل .. يعرف كيف تفك الأمور المتشابكة .. تتشابك أصوات الورشة وتتصاعد محطمة كل الشبابيك .. لا يهم .. سيجىء وأعود إلى النور المشرق من عينيه ووجهه يذيب الظلمات .. أجهز له أكلا حتما يجيئ .. لابد أنه جائع .. ها هو المطبخ .. أسمع أم كلثوم وأنا أطهى .. فعلا "أمل حياتى ماينتهيش" .. أمل حياتى آآآآآه يا أمل حياتى ! أين أنت الآن يا رانيا ؟ تبعدنا دوامات الحياة والحاجة الملحة إلى مكتبات القاهرة فى ظل مركزية التخطيط وطريق البحث عن موضع لنا فى المستقبل. (فلسفة مرة ثانية!) ما كان بعدي عندك بيدي ، إنما البحث والغد والكتابة لكي نكون أقوى عندما نجتمع. أعذرينى سيدتي على بعدي. راجع إليك بالتأكيد فلا تعرفين كم اشتاق إليك وكم أستضىء بنور عينيك .. معقول ؟ هل عندى تليفون ؟ ... مقدم عليه منذ عشر سنوات .. دائما يقولون إنه سيركب قريبًا .. يا إلهى ! .. صديقي من ؟ ... ألم يرحَل منذ عشر سنوات إلى الواحات ؟ ... أعوذ بالله من الرجيم ؟ ...أين التليفون ؟ ... ما هى الدقات التى سمعتها إذن ؟ ... لكنه فعلا صوت صديقي . كم حلمت به كثيرا ينساب فى أذني ، نازلا بردا وسلاما علي ، فيطفىء الجمر الذى أتقلب فيه وعليه ..

---

(١) الصديق العزيز بطل رواية كتابه الذى تم اغتياله فى يوم فاصل فى تاريخنا على أيدى من يهوون المصادرة والتكفير والاغتيال .

ما هذه الرائحة ؟ .. هل ينقصنى هذا ؟ .. الأكل يحترق ؟ .. ألا تكفي أصوات الورشة القاتلة ؟ .. معذرة صديقى .. لن نجد شيئًا نأكله حينما تأتي وأنا أعرف أنهم (مجوعينك) ... صديقي ؟ هل كلمني حقا ؟ ،،، ممكن .. نتصل دائما عن طريق التليباثى كأننا روح واحدة فى جسدين مفرقين .. لكنه لم يتصل بى منذ فترة ! .. هل عذابه فى عزلته الإجبارية جعله ينساني ؟ ... لا ... قال لي قبل ترحيله أنه سيرجع. أتذكر كلامه جيداً (السلطة بدون توابل مليهاش طعم .. لما كل شيء يتجمع فى يد واحدة ، يبقى كل شيء مالوش معنى .. أكيد فى ناس تانية عايشة على كواكب أخرى .. أنا راجع ..) اتصاله اليوم يؤكد أنه قريب .. لابد أنهم أخرجوه من منفاه . هل هو فى طريقه الآن إلى أسيوط ؟ ... أيكون قد وصل بهذه السرعة ؟ .. طرقاته على الباب أعرفها جيداً .. يجب أن أسرع وأفتحه .. لا أحد .. أمعقول أن تكون هذه الطرقات مجرد وهم ؟ !!! لماذا أفكر هكذا ؟ .. مشتاق إليه كثيراً اشتياق ديك الفجر لتضميد جرحه والصياح من جديد .. صوت الورشة يخرقني .. أفكاري الممزقة تلتئم. تتجمع حولي من جديد تخنقنى .. صوت صديقى (يندهنى) بقوة .. سأذهب لأنتظره فى المحطة .. لابد أنه ركب القطار من أسيوط الآن .. أحضر معطفي ربما انتظرته حتى آخر الليل .. صوت التليفون مرة أخرى ؟!! ... لا .. لن أرد .. سأخرج لاستقباله .. معقول ؟ .. أين الباب ؟ .. هل عرفوا أنى صديقه فسدوه ... ؟ والشبابيك أيضًا ؟!! لو كان معى شنيور !! .. السكين .. أنبوبة البوتاجاز .. رجل المنضدة ... سأخرج .. غبار الأسمنت خانق .. الطوب يتكسر ببطء .. الأنبوبة ثقيلة .. تسلخات فى يدى ؟!!! .. قالب الطوب يعاندنى .. يـ .. ع..

ن..ا..د..ن..ى ... يصطدم وجهي بالحائط .. نسمات الهواء المندفعة تنسيني الألم .. أسحب نفسى للخارج .. تدور كل الأشياء حولى وداخلي .. صديقي ملقى على الأرض .. ثقوب طلقات الرصاص فى جبهته عميقة !! .. عميقة !!!.. شىء فظيع ! فظيع، لسانه مقطوع .. كلاب .. أغبياء .. (كل شىء) غبى .. هزاتى العنيفة ترجرج الصرخات داخلي .. تتبعثر .. يلتقطها المسمار الطويل المدقوق فى صدره ، والمثبت أسفله .. عيناه اللتان تنظران إلى شقتي بابتسامة وليدة ، تمد صرخاتى إلى عنان السماء .. أنظر لأعلى : النور الممتد من قلبه يلقي السلام على كل النجوم ويصعد .

يقف أوديب على صخرة عالية ، ربما تفصل بين مملكتين أو جمهوريتين : يرى جموعا تهرول إليه ، تنادى بأصوات لا يحركها الهواء الساكن ، فلا تصل إلى مسامع أحد. يصرخ فى البرية أنه لم يحل اللغز ، ولا أحد يسمعه ولا عنوان يرتضيه .

يمر على هذين الشخصين الجالسين يثرثران باستفاضة تحت تلك الشجرة[1] التى بدأ يبرز فيها برعم صغير : يهرعان إليه ويسجدان ، فيتعثر فى أحدهما ويقع. يرتد إليه بصره ، ولكنه لا يبتهج كرؤية الأب لابنه ولا للامساك بقبس الفيض الآتى ، بل يفزع عندما يرى مدى القذارة المترسبة عليهما والنتانة والمنبجسة منها ، فيهرع إلى وسط المدينة ويصرخ .

يقابل هاملت – جالسا يرتدى السواد . ويحتضن قسطا من البكاء – فتنساب دموعه ، ربما تعاطفا وربما رثاء ، وربما لرغبة دفينة فى البكاء ، ثم يتوسد الأرض بجانبه .. يستيقظ فلا يرى أحدا بجواره .

---

(١) ربما كانت شجرة صمويل بيكيت اللعينة فى مسرحيته الجهنمية فى انتظار جودو .

يرى أحد الرعاة فيلعنه. ولكن الراعى يستقبل اللعنة ببشاشة ، فيصمت أوديب ويستسمحه .

- منذ ما خرجت يا أوديب لم نجد أى شىء .

- أنا ؟! .

- حتى أطفالنا لم يجدوا الملجأ أو الأمان .

- أنا ؟! .

- نعم أطفالنا. أنظر إلى عظامهم ، مبعثرة فى كل مكان ، (نفقوا) وهم يشتهون حتى أوراق الشجر (يخصفون منها) فى بطونهم .

- أطفالكم ؟!

- نعم أنت يا أوديب .

يقف ذاهلا ، وربما لأنه لا يفهم أى شىء ، فإنه يجرجر أذياله ويمضي فى صمت مطبق وضجيج أطبق .. عندما تبدأ قدماه فى الشكوى ينظر حوله ، فيجلس بالرغم من أنها ضفة ترعة مليئة بالقاذورات ... يرى .. طفلين عاريين تماما يسبحان وسط القاذورات ببطء شديد ، ينادي .. لا يرد عليه .. أحد ، يصرخ : يلتفتان ، فيشير إليهما ..

- أطفال من أنتم ؟

- هل نحن (أسفال) ؟ أتستهزىء بنا . ؟

- إذن ، من أنتم ؟

- لا أحد .

- هل رأيتما عظام الأطفال ؟

- ما "ذلك" الأطفال الذى تتحدث عنه ؟

- ألم تسمعا عن الأطفال ؟

- لم نأكل لحمة حتى نرى عظامه .

يتذكر جلساته وقت الغروب مع جوكاستا وأمنيات الجواري تتحلق حوله فيبادرهما : ما رأيكما في ... ؟ لكنه سرعان ما يصمت ، فلقد تركاه يتوكأ على أغصان أفكاره .. تتنكر الأغصان لبعضها البعض وتتركه أعزل ، فيقاوم السقوط فى الترعة ويفر إلى الطريق المتاح ، تتيح له قدماه أن يمر على عجوزين يلعبان (السيجة) على حافة طريق مستساغ ، يفاجئهما :

- ما بال الرجال قطعوا أوقاتهم فى حواف الطريق !

- ما بالك أنت يا أبله تتكلم بألغاز وأحاجى !

- أقسم لكما أنه لم يكن هناك لغز .

- لا تقسم فإنك مثلهم تقسم وتعد وفى النهاية نجدك ذئبا يرتدى ثوب النعاج .

- النعاج التى كان يرعاها الراعي على حافة الجبل ؟ هل رأيتموه ؟

- لا نحب أن نستمع إلى من "يلاوعنا" .

- لا تحبونى. فقط إذا مر عليكم ملك بعربته وحوله حراسة قولوا له أن يمر من طريق آخر .

- كفاك ألغاز وابتعد قبل أن نأكلك .

ينهمكان فى لعبهما ، فيبصرهما رجلا عجوزا عند ملتقى ثلاث طرق ، فيفر هاربا .. تكاد تدهسه عربة لو لم يلق بنفسه فى الترعة : تتلقفه أياد كثيرة مثلهما ، فيشكرهم .. (من أنتم) (لا أحد) (لقد سمعت ذلك من قبل) ويفشل فى التذكر. تزداد دقات قلبه عندما يحس أنه بدأ ينسى كل شىء ، فيلقى برأسه فى جذع نخلة مجاورة ، ويفقأ عينيه .

لحن الغد

وردة فى حضن الليل تتمايل وتتراقص. تغنى لغدها المصلوب فى عيون حجرية وقلوب ليس لها رصيد:"تعال ياحبيبى ، أم تريد أن تصعد .. فلا أراك ؟" .. تضاجع أحلاما رقيقة وتواسى الأمانى المجهَّلة .. تتصيد خيطا رقيقا من النور. يلمع فى عينيها بريق ، يراوغها الخيط ، يفلت من بين أصابعها فتقبض يدها على الفراغ .

تدلف فى المسجل شريط موسيقى "رأفت الهجان" ، تحتويها رعشة ، تطرد بعض الدموع ، تسّاقط على شفتيها ، تذيب صبرها ، فتنهض ، تحاول أن تعزف اللحن التمهيدى فى سمفونية الصباح ... تتوه منها الأنغام ولا يريد اللحن أن يتكون .

هامش : عندما تفوح الرائحة العفنة ، يكسر الجيران بابها ، يجدونها جثة على السرير ، يداها متعامدتان عليها والعود فى إحدى يديها : أوتاره مقطوعة وبجانبها نوتة موسيقية مكتوب بها بعض النغمات .

انغماس

أجلس على مكتبي. أندس فى كتبي. أستغرق فى القراءة :

- ألن تنام يا حبيبي ؟

- ليس بعد .

تخرج : أعود إلى كتبي. تعاود عيناى الغوص. أقلب صفحة. تدخل وفى يدها كوب ليمون .

- أرهقت كثيراً. قم استرح ياحبيبي .

- صفحات قليلة .

تصرخ فى وجهي. تلعن الكتب وكل شىء. تمسك بأقرب كتاب. تمزقه. يعتريني الذهول. أظل صامتًا. أتاملها ، أتعجب من سلوكها. أرى يدها تمتد إلى كتاب آخر :

- سأنام ، سأنام ، دعي الكتاب مكانه .

أخاف أن تمزق كتابا آخر. أتذكر شبابى القريب. شراء كتب. استعارة. قراءة .. أنهض . أنام .. عندما أجدها مشغولة. أستحثها

للنوم. أتعود النوم فى العاشرة. أتناسى كتبى. لاأقربها مخافة أن تمزقها ..

هامش : تتغير الإبتسامة .. تنفر منى .. أدعوها لتنام. تصرخ فى وجهى ، أخرج ، أزور صديقا .. أعود ، أجدها تقرأ على مكتبى .

عمى

السبورة تتكلم ، الأصوات غير معلومة الحروف ، الضجيج فقط يطرق الآذان ، الأبواب مغلقة. يتململ المستمعون - المفترى عليهم - في مقاعدهم. يلقون بالأقلام. يلتفتون إلى بعضهم البعض وعيونهم تتناقل معنى موحدا ! (الإشفاق على تلك السبورة فاقدة المعنى والخروج من الدوائر التى تكونها حولهم). يتوانى الصمت فى محيطهم ، يبدؤون فى تحطيم الأقلام والرقص فوق المقاعد. يتبرع واحد بالغناء ، فيتبرع الآخرون بالرد عليه والتطبيل على المناضد ..

السبورة فى الأمام مازالت تتكلم بصوتها المعتاد غير المألوف ، وعيناها مثبتتان على الحائط. متوحدون كاملا فى غنائهم. عيون السبورة تبعث إشعاعاتها الرملية واللسان حروفه المظلمة. فيزيدون الدق على المناضد ويخرجون مقهقهين .

تقليص الخريطة

كل عام يعيدون تشكيل الخريطة ، تقلصت معالمها وانكمشت حدودها ، ضغطت على الصدور فتهاوى بعضها وانطمس تحت هالات التراب أو فوقها. تبرير يقول (كلما تخف ، تغلظ قناديلها). آخر يؤكد : (حرارة الاختلاط والاحتكاك تصهر النفوس وتوحدها) .

أعيد انكماشها للمرة الـ ... اكتظ الناس داخل حدودها. طغى اختلاطهم وبثوقهم فوق بعضهم البعض وهم يحاولون أن يصلوا إلى ذرات الهواء النقية المتبقية فى أعلى الحدود .. يزداد الانكماش. يلتهم كل الهواء. الاحتكاك والتقلص يجعلان كل شيء نارا لاسعة فتضيق القلوب وتختنق الأنفاس. يتقلص الناس ضاغطين على حواف الحدود. تتفتت بعض أجزائه الدائرية من أثر الالتصاق المندفع .

هامش : ينفلت أفراد مارقين إلى الهواء. يجدون حرس الحدود يطلقون الرصاص عليهم و..... .

تعالِ أحمق

بجانب الجامع العتيق بالقلعة العبقرية ستجد الموسيقى تداعب نسمات الهواء المحملة بنكهة الجغرافيا ، رائحة التاريخ وذرات الهواء التى تشى باتساع الفضاء واندياح المسالك. بعد أن تفرغ من ثرثرة السيدات اللاتى لاتعنيهن الموسيقى فى شىء ستهرع بكرسيك إلى نهاية المسافة لتجد لك مكانا هادئا تستمع فيه إلى الموسيقى بعيداً عن الألسنة الطويلة وجلسات المصاطب و الحوارى في القلعة . لكنك ستنظر بجانبك لتجد شبابا يلبسون سلاسل ما أنزل الله بها من سلطان ، يرتدون ملابس تزهق العين المتطلعة إلى الجمال ، يقصون شعورهم قصات تذكرك بالحمير المقصوصة والفئران المحروقة والنساء الصلعاوات ، ستجدهم يلفون حول نخلة من نخيل القلعة التاريخي ، يضغطون عليها محاولين أن يوقعوها أرضا. يقهقون عندما يرون النخلة تترنح ، يلقي أحدهم ببعض الكلمات البذيئة فى فرج إحدى البنات الممتلئات فتغمز له ويسيران سويا إلى حيث لا تدري على وجه اليقين. سيزداد ترنح النخلة ، سيصرخ فيهم أحد الجالسين : "حاسب لتوقعوها علينا" . تصرخ أخرى : "استنى آخد الولد" ...

كعادتك الغبية ستنظر إليهم باحتقار. ستجذب كرسيا فى يدك وتذهب إلى أحد أطراف القلعة ، ستلقى نظرة على المدينة التى تداعب النوم وتجلس ضجرا تكتب : "بجانب الجامع العتيق .."

قالت :" أنا أمل جديد"[1] فهمت المعنى الحرفى لكلامها بالرغم من أن هذا الكلام ليس له أية علاقة بها. فهى ليست (أمل) أو (عمر) أو (هند) لكنها قالت : "لست صندوق البريد"[1] التبس علىَّ كل شىء : أشار علىّ أحد أصدقائى بأنها تعانى من (تناقض وجدانى) ولأننى لا أثق سريعا فى المسميات والعنوانات ، لم أصدق كلامها ولم أسكن إلى كلام صديقى. فقط قلت (ربما هاجمتها نوبة حداثية..) .

كانت عيناها تشعان مكرا غريبا وابتسامة تتثعلب على شفتيها الضامرتين ، تروح وتجيئ فى أركان الغرفة ، لا تستقر على أى موضوع ترتضيه أو أرتضيه حتى إننى طوال تنقلها لم أستطع أن أبصرها كاملة فى نظرة واحدة حتى لو طالت ، بالرغم من أنها ليست ممتدة فى أرجاء المكان ولا يزداد جسمها عن جسدى .

عندما وجدتنى جالسا ذاهلا لا أفقه لها قولا ، ارتدت فستانا كانت قد صنعته من تلك الستائر التى تعمل بالطاقة الشمسية ، آسف ، لا تعمل ولكنها تخزن ضوء الشمس وتشعه عندما يأتى المساء ...

---

(١) أنغام فى أغنية (من بعيد) ، كلمات : عصام عبد الله .

وفى الصباح خرجت تجوب كل البلدان .. هكذا قالت ... عادت فى بداية المساء ووجهها متهللا بالبشر ولذة النصر ... لم تسترح أو حتى تلتقط أنفاسها وأطفأت المصابيح جميعًا . فتحت الشباك وتقرفصت . لم أستطع أن أستوعب ما يجرى أو يحدث ... وبالرغم من أننى كنت أرى بعض الأضواء الخافتة تشع منها ، فإننى لم أدر ماذا أفعل ، ووقفت صامتا ..

ولما وجدتني ذاهلا لا أفقه لها عملا ، قذفت بنفسها داخل الغرفة وأسرعت إلى مكتبى : أخرجت ورقة وقلما كتبت اسمها بخط متناسق كبير بالرغم من اهتزاز يديها. طوتها وأدخلتها في مظروف أسود. تركت الغرفة مسرعة فعدوت وراءها السلم. وجدتها تدخل المظروف فى صندوق البريد الخاص بى وتنظر إلىّ كمن حققت انتصارات جليلة تليق بفاتح عظيم .. أدمت النظر .. إليها ثم تركتها وخرجت إلى الشارع .

قال إنه يريد أن يسمع لى . لم أجبه فقد كنت منغمسا تماما فيما أكتبه ولم تكن لدىّ رغبة فى الكلام المرتفع .. أو حتى المنخفض. لذلك تعمدت أن أوحى له بأننىّ لم أسمعه .. أخذت أكتب .. سمعته يكررها ثلاث مرات ولما لم يجدنى أنصت إليه قال : "يبدو أنك أنت الذى تريد أن تسمع لى " وخرج ..

توقف القلم فجأة ، ربما بعد فترة طالت ، فانتبهت. أدركت أنه كان يسألني عن سبب عدم تجهيزى الشاى له كالعادة ، فأخذت فى الضحك. علا صوتى فقدم على أثره. ولما رانى أضحك ضحك ويبدو أنه نسى .. ما كان .

بادأنى بالكلام : " ألم أسالك ثلاث مرات عن سبب انقطاع التيار الكهربائى؟ " نظرت إليه بذهول حائر ولم أستطع أن أتفوه بأى حرف يمكن أن يقال فى مثل هذه الحالة غير العادية .. لأول مرة أنتبه إلى انقطاع التيار. لكن كيف أنتبه وصوت المسجل مازال ينشر أريجه فى الهواء المحمل برائحة الدخان ؟ لا ، لم يكن محملا برائحة الدخان فقد توقفت عن التدخين منذ فترة قد تطول. الصمت حيرنى .. أخذ ينظر إلى :

يحملق ويتفرس في ، وبعد أن يأس من محاولة ردى أو حتى الكلام مهما كان نوعه تركنى وخرج ..

خرجت وراءه مباشرة أسترضيه وأحاول أن أعيده ، لم أجده فى أى مكان أو أعثر على أى أثر له .. ، حتى الشوارع كانت خالية من أى شيء أو أى شخص. صرخت ، لم يرد على إلا الصدى المترجرج فى أرجاء المكان يملء أذنى بالضجر. ناديت بكل الأسماء وبكل اللغات وما هناك أحد .. فرجعت وصمتُّ .. بعد لحظات وجدتنى أتجمد وتتلاشى قواى تماما فاستسلمت و ......

تسرب

ستقرأ إعلانا فى جريدة ما "مطلوب مطربون ومطربات.. "ستلمع عيناك ببريق (أهى فرصة ، يمكن ...) وستتذكر ما تقرأه فى الجرائد عن المطرب الذى دفع مليون جنيه ضرائب. ستراودك عيون الجميلات وانتفاضة الجسد أمام الجمهور. ستجدك راكبا سيارة لم تر لها (أخت) من قبل وسترى المال يتسرب من بين يديك فلا تعبأ به. ساعتها ستمسك القلم وتبدأ فى الخربشة بكلمات (حتكسر السوق). ربما تكتب (بصيت أنا من الشباك ، لقيت عيونه على السباك ، ترمى هوانا بره هناك ، وتقول أنا ما أنفعش معاك) .. ستحاول أن تلحن الكلمات لحنا (يخلى البلد كلها ترقص) ستتزاحم أمامك صور الشباب الذى يتهافت على شراء نسخة من ألبومك الغنائى الأول. سترى أنك (لازم أعمل حاجة ماحصلتش لاتقولى حكيم ولا تقولى عمرو دياب) ستخط بعض الكلمات (سابنى وفلسع - بدأت أنا ألسع - لا أشوف ولا أسمع . إلا هواه). ستهل عليك كاميرات التليفزيون فتجلس (على راحتك ، ما أنت راجل مهم بقى) ستجيب بكلمات غامضة وستحس بالنشوة عندما تطلب منك مقدمة البرنامج أن تفسر لها بعض الأشياء وستعدل من وضع رابطة عنقك عندما تسألك عن رأيك فى العولمة. ستحاول أن تقول كلام كبيراً وستنظر إليك المذيعة فى دهشة من قدرتك الفذة على ربط الظواهر ببعضها.

ستدهش بالطبع من غبائها ، لكنك ستمتدح حوارها الذكى وستقول لها متواضعا (نعمل إيه ، لازم المطرب يكون مثقف ويفهم فى قضايا جمهوره والعولمة) لن تنسى بالطبع بعد أن تبتعد عنكما الكاميرات أن تواعدها على اللقاء ممنيا إياها بعربة فخمة ، ولن تنسى هى أن تعدك بإذاعة أغانيك كل ساعة فى التليفزيون .. وأنت خارج سيسألك الصحفى اللامع (اللى داخ عليك السبع دوخات) عن عبقرية أغنيتك المعجزة (ياميكروباصنا ياميكروباصنا على فين واخدنا ياميكروباصنا) ستبتسم ابتسامة المتواضع كأنك (عارف الكبيرة والصغيرة) وتقول إنك تعبر عن نبض رجل الشارع وتريد أن تصل من المحلية إلى العالمية ، لن تقول بالطبع إنك لا تعرف معنى المحلية أو العالمية ، فأنت تعرف كل شىء ويجب أن تكون لديك إجابة عبقرية عن كل سؤال. لن يفوتك بالطبع أن تعده بهدية عظيمة ولن ينسى هو أن يعدك بنشر صورتك وأخبارك فى الجريدة كل يوم ...

عندما ينصرف الصحفى ممتنا للحوار (اللقطة) ستنظر حولك فتجد كوب الشاى قد برد والهواء طير أوراق الجريدة ، ساعتها ستضع علامة استفهام على تلك اللحظات المتسربة من حاضرك وستضغط على زر جهاز التسجيل لكى تكمل سماع وصلة صباح فخرى الغنائية .

ستجد نفسك بعد الثانية صباحًا واقفا تلوح لأى ميكروباص. ستركب بالطبع بعد فترة ما وستجد بجانبك ثلاثة أو أربع أشخاص ، لكنهم سيهبطون واحدا تلو الآخر بعد دقائق معدودة ، وسترى نفسك وحيداً فى السيارة تفكر فى المسافة الطويلة المتبقية ، تنظر إلى السائق لتتبين ما قد توحى به ملامحه فتراه يحاول الالتفات للوراء كثيراً. لن تتكلم بالطبع وستحاول النظر من الشباك علك تتناسى ما قد يحدث. لكن أفكارك لن تدعك. ستلح عليك فى الدخول إلى العربة خاصة ولا يريد راكب جديد أن يهل فى الطريق ... ستراودك أفكارك بأن السائق مشكوك فيه لكنك ستسخر من تفاهتك ، فما عساه يفعل وما فى جيبك إلا جنيهات معدودة. عندما ترتاح لسخريتك ستنفى أى أعتداء قادم وتجلس على راحتك تعبث بسلسلة المفاتيح ... سيدير السائق رأسه للوراء ثم يعيدها فيلعب الفأر فى عبك وتبدأ فى التحفز واستنهاض قواك المنسية. ساعتها سيتوقف السائق تمامًا تم يتلفت إليك : يا أستاذ اتفضل أجرتك ، الطريق باين عليها مفيهاش زباين دلوقتى ، وولاد الحرام كتير ، أنا هارجع" . ستهم أن تتجادل معه - لكنك ستجد نفسك تأخذ الجنيه وتهبط. ستقف حائرا فى الطريق تلوح لأى عربة قادمة ، تلوح وأنت تداعب ابتسامة تحاول الصعود إلى وجهك .

مياه النهر

كتب صاحبهم (تلقى الشمس بأشعتها البرتقالية على مياه النهر). لكنه بصق على قلمه وفركه تحت جزمته. كيف يكتب مثل هذه الأشياء المبتذلة وصاحبه رجل حداثي ضخم. أتى بقلم آخر وهمس له ببعض الألفاظ ثم شرع يكتب :(تقذف الشمس بأشعتها السوداء على مياه النهر) . زفر ولعن أشياء كثيرة فكيف لنص حداثي أن يجد لذة في دوال مثل "أشعتها" و"مياه النهر "بدأ يستريح قليلا ، خاصة عندما بدر إلى خاطره ما قد يقوله النقاد عن جمال الصورة وتشظي الوعي. ابتسم عندما تخيل ناقدا يدافع عن إزاحة المركز ومسخ الكائنات في هذه الجملة العبقرية. أخذ يفكر في الطريقة التي سيكمل بها النص هل يكتب : (والمدن الحجرية تأكل أطفال المجاري) ؟ لكنه لم يسترح لهذه الجملة. كيف له أن يستخدم عبارة مثل "المدن الحجرية" وقد استخدمها غيره من قبل ؟. يجب أن يكون مبتكراً فسحب نفسا من السيجار وخط: (والمدن الأسمنتية تزدرد أطفال الأسمنت) مدد ظهره على الكرسي الهزاز وأخذ ينظر إلى ما خطه برضى وزهو ، لكنه سرعان ما ساورته الشكوك حول كلمه "أطفال" هل يكتب حداثي عبقري مثله هذه الكلمة المبتذلة؟ ، فكل الناس تفهمها. لابد من ألفاظ جديدة تمام ، فكتب :

(والمدن الأسمنتية تزدرد أشباح الأسمنت) يبدو أنه ارتاح نوعا ، فلقد بدأت عليه علامات البهجة. كما أنه قبّل القلم وأخذ ينقر به على كوب الزجاج أمامه. انشرح صدره عندما تخيل حوار النقاد وجدلهم.. ولما بلغ به الخيال أعلى قمة في الجدل ، آفاق على صوت ساعة الحائط ، فلام نفسه على هذا الخيال ، كيف له أن يتمادى فى الخيال وهو حداثى من المفترض أنه يرى الخيال شيئًا تافها يجذب العامة والقراء السذج .. فوضع القلم جانبًا: فليكتفى بما كتبه وليدع النقاد يختلفون ويتجادلون حول عبقريته ... وقرر أن يتوقف عن الكتابة هذه الأيام ، فليجعل القراء يسألون عنه ويدوخون "السبع دوخات" وراء قصيدة يترجونه أن يكتبها .. وفى الوقت المناسب سيهل عليهم بقصيدة أخرى تصير فتحا مبينا فى تاريخ الشعر .

حفلة الزفاف البسيطة

توقف صاحبهم ليس رغبة فى مشاهدة الحفلة وإنما لأن أهل الحارة الطيبين يسدون الشارع . استفزه الشباب الذى يتراقص على أنغام موسيقى سريعة بهذا الفرح ..

كيف ينتهك هؤلاء الجرذان الجسد بهذه الرقصات الرومانسية الغبية ، حمقى يبتذلون الجسد المقدس .

عدل من وضع نظارته الشمسية ونظر اليهم باحتقار شديد وبغل أشد وكأنهم أعداء فجره اغتصبوا أرضه ودنسوا حرماتها. هم أن يخرج مسدسه الذى يحتفظ به دائمًا لكى يقذف طلقة فى جسدهم الساذج حتى ينتصر "الجسد المقدس". لكنه استدرك تهوره خاصة وعيناه لم تستطع أن تحصر أعدادهم :

أين هم من ميتافيزيقا الجسد وصوفية الأعضاء ؟ أين هذه المسخ البشرية من تناص الجسد وقتل المدلول الجسدى ؟ جرذان لن يفهموا اللعب الحر لدال الجسد ...

أخذت الأعداد تتزايد وبدأت الرقصات تنسجم وتتناغم مع الموسيقى البسيطة التى تنساب فى تلقائية وخفة فالتقط صاحبهم من

آخر ندوة جمهوره القليل جدا الذى ظل متململا لا يقوى على تحمل أعباء (النبوة) وهو ينزل عليه فيوضات شعره. وما كان منه إلا أن أطلق على أهل الحارة الطيبين نظرة غل موتورة ...

لماذا تتجمع هذه الآلاف الغبية حول هذا الشاب تافه الغناء ؟ جمهور ندواتى لا يزيد عن العشرة. مجتمع غبى لا يعرف كيف يقدر العباقرة مثلى. ألا يعرفون أنني طورت الحداثة بأن جعلت الجسد صوفى الإيقاع متحرر من المدلولات التقليدية ..

اتكأ على الحائط بجواره. أشعل سيجارة. لعن انتهاك القيم ، سب تدنى الذوق وبدأ يكتب :

الجرذان يسدون فتحات الأفق. يستولون على الجمهور الكافر ويقتلون جمهور الفيوضات الحداثية ..

توقف بالقلم وبدأ يفكر فى طريقة يهدى بها هذا الجمهور الضال إلى إشراقات شعره وآيات عبقريته الفريدة ... فشل فى أن يصل إلى أية طريقة ، خاصة وإنه لا يعرف كيف يفكرون ولا بما يشعرون. فرمى قلمه وقرر أن يرحل إلى بلد آخر يجد جمهوراً يستأهل عبقريته وشعره الذى لم يسبقه إليه أحد .

اقتفاء الأثر

"الحياة وردة للى يرعاها"

من أغنية لفريد الأطرش

عندما ستكون جالسا على مقهى تدردش مع صديق ، سيمر صاحبهم أمامك ، ستراه يقتفي مؤخرة احدى الفتيات البدينات ، وعندما تنظر إليه باحتقار سيلتفت ليتأكد من أن أحدا لم ير نظرة الاحتقار ، سينظر إلى المقهى بحيرة وقرف ، وستجده يعطيك ظهره ويذهب إلى الناحية الأخرى من الرصيف ، يخرج ورقة من جيبه ويدون بها بعض الأشياء ، سينساب العرق من على جبينه وسيبحث عن منديل لن يجده ، فيقدم إلى المقهى ، يسحب كرسيا إلى آخر ركن ممكن ويشير إلى صبى المقهى بطرف إصبعه ، ستنصت إليه محاولا ألا تلتفت ناحيته كى لا يقف ويترك المقهى ، ستسمعه يهمهم للصبى. وسترى الصبى حائرا لا تبدو عليه علامات فهم .. سيشرد بناظريه ثم يقف فجأة ، يلعن نزار قبانى لأنه انتهك الشعر وجعله فى متناول العامة والغوغاء .

وما إن يهدأ حتى يجلس فى صمت شديد ، يلتهم دخان الشيشة ويغيب مع تموجات الدخان .. عندما يفيق نوعا سينظر إلى مدخل المقهى ،

وعنـدمـا يـرى شيـشـا كـثـيـرة فى أيدى الرواد سيلقي المبسم من يده وينادي على صـاحب المقـهى (يا أنت ، يـارومـانسى يا متـعـفن ، أتطلق سراح الشيـشـة لتصل إلى الغوغـاء ؟ أنا لازم أدخلك السجن) وعندما لا يعره صاحب المقـهى انتبـاها سيجلس مكانه ويضع رجله فـوق المنضدة فى وجه معظم الرواد . ثم يبدأ يتكلم كأنه يقرأ من ورقـة أمامـه (الجسد اللازوردى يغـتـال سـواد الورق الأبيض ، يتـبـول فـى مـرآة العـين الرومـانسيـة ، يوقـد النار فى هشـيم الكلاسـيكيـة ويرفع راية الحداثة المشرقة ...) سينظر بعض الرواد إليـه ثم يتهامسون ويتضاحكون فيما بينهـم ، فيـهب واقـفًا (أنا غلطان اللى باتكلم مع ناس غـجر زيكوا - أفسدهم نزار قبانى ، انتـو ما تستـاهلوش موهبتى) وينصرف. سينظر الراود إلى بعضـهم متسـائلين فيـهدىء صاحب المقـهى من استـفسـاراتهم (اللّه يكون فى عونه أصله شاعر حداثى) عندئذ ستجد عينيك تقتفى أثره وستراه يحرك يديه فى وجوه لا تراها ، وسيـفـتح سوسـتـه بنطاله ويتبول فى وسط الشارع فستتأفف منه وتعود إلى كركرة الشيشة .

صورة

"إن فساد اللغة يعقب فساد الإنسان "

إمرسون

لن يستقر نظرها على شيء. فقط ستميل عليك وتهمس (كلام فى سرك ويقولها مرة ، عذاب بحسه ، عذاب وثورة)[1] ستفكر أن تربت على كتفها لكنك ستتذكر أن هذا عيبا فتواسيها بنظرة متفهمة وستبدأ تكتب لها بعض الكلمات علها تهدأ .. ولما تجدان النظرات (الحشرية) تحاصركما ستنصرفان .. ستجدها كلها حيرة وقلق وتنظر إليك وتبادرك (ما هذه الغربة التى يدخلوننا فيها بالعافية؟) هل قرأت آخر صور الشاعر الهمام ؟ ستسمع الكلمات تنهال عليك كبلطة تقتلعك من تربتك: (دودة الشفق تأكل فى تشظى الكون) ستحاول أن تضحك ساخرا من الصورة لكنك ستخاف أن تحسبك تضحك عليها لذلك ستدارى ضحكتك وستحتفظ فقط بنبرة السخرية .. ستقول لك (إن ظللنا هكذا فسيموت الشعر على أعتاب القرن الجديد) ، ستنظر إليها باستغراب كأنك لاتفهم شيئًا فى محاورة منك لأن تستثيرها وتجعلها

(١) من أغنية (شدى الضفاير) لحنان ماضى. ك . كوثر مصطفى .

تستفيض ، فدائماً تعجبك حيرتها ونبرة الطزاجة والصدق فى كلامها ، لكنها ستفهم مقصدك وستكتفى بالنظرة الحائرة. ساعتها ستميل إلى أقرب عصارة ... ستقدم لها كوب العصير وتقول لها (لاتقلقى سيدتى ، فصاحب هذه الصورة قتل نفسه منذ أول ديوان له) وستجد عيناها تقول لك : (لقد قلت هذا الكلام من قبل) عند ذلك ستحاول أن تغير الموضوع : (إلى أين وصل ديوانك؟) سترجع الكوب فارغا وستقول : (لم ينشر حتى الآن ، ثلاث سنين !!) ستكون قد أرجعت كوبك وستحسان بحرارة شديدة ورائحة عفنة تتسرب من مكان ما ، ربما تكون رائحة بول صاحبهم فى القصة السابقة (اقتفاء الأثر) .

على الطريق

(أ) ابتهال

يلتقط رذاذ المطر المتساقط على رأسه ، يهرول يمينًا ويساراً فى فرح جنونى ، يبتهل للرذاذ المدهش ويبتلع أريج الهواء المواتى ثم يلقى برديم السنين والحداثة فى أقرب سلة زبالة ، فينداح الهواء إلى رئتيه جميلا يداعب خلايا الجسم الوليدة ويدغدغ تشكلات الحلم والقص. تبدو السماء فى أبهى صورها فيلتقط مفردات الكون ، يعزف عليها سيمفونية عذبة - عزفا تتجمع حوله وعليه كل الكائنات .

(ب) عبقرية الخلق

تتساقط أشعة الشمس البرتقالية على مياه النهر الرقراقة. تنساب المويجات الحنونة ، تغازل ضفة النهر وتلاعب الأسماك الصغيرة المتقافزة ، وتدهش من الصنارات المدلاة من أعلى الكوبرى ... يتوحد صاحبنا مع كل ما حوله ، يملا ناظريه بعبقرية الخلق ، يدلل المياه بقدميه الحافيتين ويدردش مع سمكة نشوى ، تنضج الدردشة وتتولد المناغاة والمناجاة وتتناغم البساطة مع القلوب الوضاءة فيخرج صاحبنا ورقة من جيبه ويبدأ فى شف الحقيقة المرتسمة فى شغاف القلب .

(جـ) الحداثة والإطار

يلتفت صاحبنا للوراء ، فيضجر من الرنات الحداثية التى تصلصل فى بعض أركان مجموعته القصصية. يألم لذلك الإحساس الفظيع بالغربة والفقد. يلقى بنظرة فاحصة على أحراش قصصه فلا يجد الغابة جميلة : يلاقى نفسه واقعا فى أحابيل المدن أحيانا ، خاضعا لآثارها الميتة فيحاول أن يمزقها أو يكشف طريقة أخرى تعادل حجم الألم. لكن قصصه لا تخرج من الإطار اللعين ، فيهم أن يمزقها .. لكنه يتوقف ، فليدعها تعيش كيفما شاءت ، فهى مجرد لحظة تاريخية ، تولدت من أول صدمة مع الغربة ، وربما يجىء يوم قريب تتحلل ذاتيا ، وإن لا ، فلابد من ....

(د) قلق

يفزع من تبدد رؤيته. يقلق على غياب الحكى الحميم فيضع علامة استفهام كبيرة على (قصص؟) المجموعة. ما كل هذا الانغلاق؟ كيف ذلك الحصار ؟ هل كتب عليه أن يدور فى فلك اللحظة الميتة ؟ وإن كان فإنه الملوم ؟ أسلم نفسه لها طواعية بدون وعى وبلا مقاومة ؟ .. يوشك أن يشطب الحكايات المشبوهة والكوابيس الرهيبة ، فيطل عليه وجه طفل عراقى ، يبتسم ابتسامة أليمة فيتوقف صاحبنا ، يقبل وجنتيه الصغيرتين ويسرح بنظره مع مجرى النهر .

(هـ) الرضا

قال : هل آن لى أن أخرج ؟ هل أستطيع أن أصل إلى جوانب البساطة وراء تشوهات المدن ؟ لماذا أرضخ لأيديولوجيات الغربة المقصودة منهم ؟ لماذا لا أنبذ ما يصرون أن يجعلوه من نصيبنا ؟ ... سقطت دمعة حاول أن يخفيها وأدار لنا ظهره .. هرع إلى ألبوماته ، بدأ يتصفح فى الوجوه التى يعرفها ، يجمع ما بين السمات ويوحد ما بين الملامح ، تناسلت البساطة ، وشرعت الخيوط الجميلة المتناسقة تظهر وتتشكل ، فترتسم على وجه صاحبنا علامات الرضا فيقبل هذا الرضى البديع ، تظهر له مخططاتهم الاستعمارية محددة الملامح ، فيمسك القلم ويغض النظر عن .....

(و) الخريطة والانطلاق

الرضا يحتوي صاحبنا ، يدثره ، يزمله ، يمده ببصيرة هجائية تستقرئى العمق .. يلقي نظره على الخريطة الإبداعية لهذا الوطن : يجد أصحاب البطون المترهلة والجيوب المنتفخة ، والعيون الحجرية يرسمونها حسبما شاءوا . يصرون على أن تكون المواقع على الخريطة موغلة فى متاهات الذات تائهة فى عزبة مفرطة لاتقدر على الخروج من كهوف الأنا أو (واق واق) الأحزان حتى يهنؤوا بقسمتهم وما (كوشوا) عليه ......

يشعر بالقهر وما القهر بمسيطر عليه ، يلتفت للوراء ، ثم ينظر سريعا إلى الأمام ، يلعن الخصخصة ، يبرى مداد قلمه وربما يسنّه أو يشحذه وينطلق ...

الفهرس

صدر من الكتاب الأول

١ - صحراء على حدة	قصص	عاطف سليمان
٢ - دراسة فى تعدى النص	نقد	وليد الخشاب
٣ - حدث سراً	قصص	أمينة زيدان
٤ - رسوم متحركة	شعر	صادق شرشر
٥ - ليس سواكما	شعر	عبد الوهاب داود
٦ - احتمالات غموض الورد	شعر	طارق هاشم
٧ - تدريبات على الجملة الاعتراضية	قصص	مصطفى ذكرى
٨ - كلوديوس	مسرحية	محمد السلامونى
٩ - مسرحيتان من زمن التشخيص	مسرحية	محسن مصيلحى
١٠ - ليكن	شعر	هدى حسين
١١ - أحلام الجنرال	مسرحية	محمد رزيق
١٢ - حفنة شعر أصفر	قصص	محمد حسان
١٣ - يستلقى على دفء الصدف	شعر	عطيه حسن
١٤ - النيل والمصريون	دراسة	حمدى أبو كيله
١٥ - الأسماء لاتليق بالأماكن	شعر	عزمى عبد الوهاب
١٦ - العفو والسماح	قصص	خالد منتصر
١٧ - ناقد فى كواليس المسرح	دراسة	مصطفى عبد الحميد
١٨ - أطياف شعرية	نقد	عبد الله السمطى
١٩ - أنا	نصوص	غادة عبد المنعم
٢٠ - سارق الضوء	قصص	ليالى أحمد
٢١ - رجع الأصداء	نقد	جليلة طريطر
٢٢ - شروخ الوقت	شعر	ماهر حسن
٢٣ - أغنية للخريف	قصص	عاطف فتحى
٢٤ - بائع الأقنعة	مسرحية	صلاح الوسيمى
٢٥ - بائع الأقنعة	قصص	شوقى عبد الحميد
٢٦ - كوجهك حين ارتحال الصباح	شعر	خالد حمدان
٢٧ - وشيش البحر	رواية	أمانى خليل
٢٨ - ناصية سليمان	قصص	مجدى حسنين
٢٩ - أغنية الولد الفوضوى	شعر	محمود المغربى
٣٠ - سؤال فى الوقت الضائع	قصص	مدحت يوسف

٣١ - كرحم غابة	شعر	خالد أبو بكر
٣٢ - الآخر	مسرحية	ياسر علام
٣٣ - جمر الأصابع	شعر	أشرف يونس
٣٤ - سقوط ثمره وحيدة	قصص	حسن صبرى
٣٥ - أمسيات عائلية	شعر	سعيد أبو طالب
٣٦ - ملامح وأحوال	نقد	ناصر عراق
٣٧ - كتابة الصورة	نقد	محمد مختار
٣٨ - نتاج الخوف	مسرحية	ناصر العزبى
٣٩- عناصر الإضحاك فى مسرح بديع خيرى	نقد	محمد زعيمة
٤٠ - أولى أول	حكايات	محمد ناصر
٤١- وهج الكتابة	نقد	حسان بورقية
٤٢- البنت مصرية	قصص	مصطفى الشافعى
٤٣- قبل إكتمال القرن	رواية	ذكرى نادر
٤٤- تجرى بسرعة فائقة	شعر	سحر سامى
٤٥ - تفكيك الرواية	نقد	فتحى أبو رفيعة
٤٦ - نفس طويل	قصص	راندا طه
٤٧ - الميتامورفوسيس فى المسرح الحديث	نقد	مروة مهدى
٤٨ - فى السنة أيام زيادة	شعر	جمال فتحى
٤٩ - ماتحاولش	مسرحية	مصطفى سعد
٥٠ - الفن الفطرى فى مصر	نقد	ضحى أحمد
٥١ - كائن خرافى غايته الثرثرة	شعر	نجاة على
٥٢ - لون هارب من قوس قزح	رواية	منى الشيمى
٥٣ - الشرك	قصص	ليلى الرملى
٥٤ - رغبات	قصص	فارس سعد
٥٥ - لن تدرك سرك	رواية	أحمد عادل القضابى
٥٦ - حاجات تانية	شعر	محمد عبد الحميد دغيدى
٥٧ - خازنة الماء	شعر	فتحى عبد السميع
٥٨ - قص ولصق	قصص	مجدى عبد الهادى
٥٩ - عيون سمارة	أوبريت	فرغلى مهران
٦٠ - اسير نحو نقطة مفترضة	نقد	محمد أحمد العشيرى
٦١ - وخز كان	قصص	أحمد كمال زكى
٦٢ - أثر الأعمال الأدبية فى الملتقى	نقد	فاطمة فوزى

٦٣ - الروائيون المصريون الجدد	نقد	أحمد الشريف
٦٤ - مذكرات دوناكيشوته	قصص	أمنية طلعت
٦٥ - أنساق اللغة المسرحية	نقد	حاتم حافظ
٦٦ - تغيرات فنية	قصص	نائل الطوخى
٦٧ - محاورات الضوء والظل	نقد	عبد الغنى السيد
٦٨ - النقد المعاصر للفكر السياسى	نقد	أشرف منصور
٦٩ - لونه أزرق بطريقة محزنة	قصص	محمد صلاح العزب
٧٠ - أغنية للمساء الحزين	قصص	أيمن الخراط
٧١ - موكب الجنون	قصص	صبرى عبد الحفيظ
٧٢ - حروب وهزائم	شعر	منتصر عبد الموجود
٧٣ - فى انتظار شىء ما	قصص	أسامة قرمان
٧٤ - هيمنة الغائب	نقد	علاء الجابرى
٧٥ - حماقة	شعر	يحيى زكريا
٧٦ - بدايات قلقة	قصص	جمال الجزيرى